

سَمِيرَةُ عَزَامَ وَالْقِصَّة

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

تقول ، « ليست كالأخريات ، وهي غيرهن نبتا ونشأة ، وهي ذات مبادئ ما أرخصتها قط » .

وكانت ترى الناس من حولها « يحسون الأيام ، أما هي فما في عام يروح وآخر يجيء بمبت فرحة أو محرك أمل ، فيومها الآخر كبقية الأيام ، وليلتها تلك الليالي الباهتة ، وجهه تقنع بالجمود » . وكانت تكتشف ذاتها أو تسعى لتوكيد ذاتها أمام جدار الجنس الآخر الذي يقيد خطى الفتاة ، ويشل حركتها ، وهكذا تضطرب صورة الحياة بين يديها وتغدو القصة حكاية نفس ملونة بلون الذات ، تعالج بها التجربة لتغدو إلى الموعظة ، وتغوب فيها الحدود بين الميولودراما والمسافة . وبذا اكتسبت إفاصيصها الأولى حيويتها من انشغالها بالقضايا الاخلاقية ، النابع من تربيتها ومحيطها وذكريات الأيام الخوالي في ديار الوطن . لقد كان مستودع الذكريات معيناً نرا اغترفت منه ، وانتشلت من طيه أيام السعادة الأولى ، وتقاليد العائلة المحافظة ، معكوسة على جدار الحاضر المظلم في بابل المهاجرين والللاجئين والسبايا ، او العاندين الذين لم يعودوا . ومن خلل الملاحظة الدفيعه والوعي الاخلاقي الذي لا يرتحي قبضه ، اخذت شخصياتها تتحرك وتنمو ، ومواقفها تتطور وتنبؤ ، كان ههما آنذاك ان تذكر وان تلاحظ وان تحس ، أما التأمل والتفكير ، والنسك والايمان ، والتقد والحاسبية ، فطورها لم يكن بعد . كانت افاصيص الاشيء الصغيرة صراعا يبسن الروح العذب والنفس البريئة الظاهرة من ناحية ، والمحيط الجديد الذي لم تستطع ان تهضمه وتمثله وتمنسه في كيانها لتتلبس به كيانا آخر . انها يفظه الطبيعة المنخيلة المبعدة ، والتماسها المجال الذي تستطيع ان تنداح فيه وتنسع وتسرح ، سواء في عالم التصوف الاخلاقي أو المحبة الانسانية . انها وعي الاخلاق في طبيعة منبسطة كبلها الظلم والعزلة والحدود التي ترفضها الذكريات والمواقفات ، والتقوى المورثة والتعطش الى السمو والتشبث بالمثل .

لقد صارت صراعا مريرا لكي تتحسي ذاتها وتقف على طرف المسافة الموضوعية بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون ، وجاهدت لكي نظل بعيدة عن مواقفها واشخاصها ، ونطلق السى حياذ الكلاسيكية وصدقها : « كانت » كما تقول « في رأسها خطوط مختلفة لمشروع ، كانت تعاني فيه فراغا لا يملؤه الا جبار ، جبار يبدو معه ماضيها شيئا ممسوخا ، شيئا لا يجرو حتى ان يهز في نفسها مكامن الحنين او ان يقول انه منها ... كانت تحب الحياة وتهيبه نفسها لرسالة فيها لا تعرف كيف بدأ بها ، وكان الفراغ يخيفها ويجسم لها فظاعة العدمية ، ويات نصيق بالركود ونشاق شيئا من النظر في طبعها : ان تحب كثيرا وتكره كثيرا ، ولا يمكن لانسان فارغ ان يلو شيئا من هذا » . انها ، اذن ، تبحث عن الجبار او البطل : « بطل دوره فيسي حياتها عظيم ، متفرد يرقى بها الى حيث تكون الحياة عبقرية وفنا لا يمارسهما كل الناس ، الى حيث يعبر الانسان عن انسانيته باصالة كبيرة » .

في تلك الأيام ، أيام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، حين كانت سميرة تكتب افاصيص الظل الكبير ، عثرت على البطل الجبار الذي كانت نفسها تشوف اليه ، وعثرت الامة العربية على البطل الجبار الذي جسم طموح الامة وبعث الامل في نفوس ابنائها ، وبخاصة ابناء الفردوس المفقود الناميين على حلم العودة - حينئذ بدأت معادلة حياتها تفسر على ضوء باهر جديد : اخذت تسقط من مخزونها ذكريات الفتاة الانثى ، وشرعت تستوعب في كيانها تجارب البطلة المجاهدة ، متفيسة ظل البطل الكبير صانع الامجاد ومجتزح المعجزات .

انه ليحزنني أشد الحزن ، ان أفد اليوم لاتحدث عن انسان عزيز علي قريب الى نفسي ، من خلال قراءة نتاجه ، بينما كان هذا الانسان قبل شهر ، صفحة حية مشرقة مائلة امامي ، تتجسم فيها صفات الذكاء الحاد ، والفكاهة العذبة ، والحيوية المتدفقة والاخلاص الفذ . ان مهمة مؤرخ الادب او ناقده لتغدو عسيرة شاقة ، حين يضطر في بضعة شهور ، الى ان يقصر النظرة التي كانت تقرأ الادب من خلال الحياة ، على ان تطالعه صفحات مكتوبة وحروفا صامتة ، يستجلي فيها بالتأمل والتفكير ، ما كان بالامس يستجليه بالحس والمخالطة والخبرة الحية - فوالله لولا انها سميرة ، الصديقة المثلى ، التي نعمت بصداقتها الخالصة وودها المصفى ردحا من الزمن ، عزت فيه الصداقات ، لما أقحمت نفسي هذا المقتحم ، لائلو على مسامعكم كلام المؤرخ الناقد ، الذي كان بالامس القريب سرار الصديق الى الصديق ، او خطاب القارئ المنثوق الى الكاتب المبدع ، حيث يتسع مجال المناقشة وتضيق كل عبارة بلون الحياة وينطلق الكلام حوارا تحوطه رعاية الصداقة ، ومقاسبة يلفها جو الثقة ، فيصبح المنثوق والمبدع كلاهما معلما ومتعلما .

ما كان أفتانا ايها الصديقة العزيزة ، عن هذا الحوار الاصم ، لولا فجيعة النكسة التي كنت قريانا من قرايبها ، وشهيدة من شهدائها في ذلك الرتل الطويل من المجاهدين الشرفاء الذين صعدت ارواحهم في معراج الفداء ، لتنبوا مكانها في أعلى عيين مع القديسين الاخيار والشهداء الابرار .

منذ عشرين عاما اخذت تعقد في أفق الادب العربي سحب سوداء مدلهمة ، تراكمها زفرات حرى كان يصعدنا الفلسطيني التائه ، لتصور احزانه ، عقب تلك النكبة التي دمرت نفسه وقصمت ظهور اخوانه العرب . وكان يجد متسما للكلام ، اذ أوهم بان ليس ثمة متسع للعمل ، فصاحب القضية مكره على ان يتنازل عنها لمحاميه ، ليحل المدافع بالكلام مكان المدافع بالساعد ، وتغدو قضية صاحب القضية ، الجري وراء لقمة العيش الملوثة بالدم والمهانة ، ينتظم من اجلها صفوفنا طويلة ، ويظاردها اثناء الليل وأطراف النهار - في تلك الأيام المضمخة بعبير الجهاد وامجاد الثورات المظفرة ، المجللة بسواد الحاضر ومآسي الامس القريب ، كان المقيم يلوك لسانه ولا يجرو على ان يخرجه ، والمهاجر يعض ذكرياته بما اختلط فيها من حلو لسانه ولا يجرو على والمهاجر يعض ذكرياته بما اختلط فيها من حلو ومر ، مسردا حماسيات ابراهيم وملاحم عبد الرحيم ، شهيد الشجرة ، وشوارد ابي سلمى ، ورومانسيات فدوى التي كانت ترثي الوطن حين ترثي أخاها ، ثم ينطلق لسانه هو ليعبر عن النكبة الفاجعة بعد ان خرجت من حيز الامكان والترقب الى حيز الواقع والفعل . كانت كل الجوانح مطوية على الالم ، وكل السواعد متحفزة للعمل ، لو أتيح لها العمل ، وكل الالسنه مشحودة للقول وما أوسع مجال القول .

في تلك الأيام الحزينة ، بدأ فلم سميرة يلتمع بين الصفوف في خشية واستحياء . كانت تبحث عن بيتتها وذكرياتها بعين فتساءة صغيرة ناهية فقدت بيتتها وذكرياتها ، في خصم متلاطم الامواج ، لم تكن تلحظ فيه ، في بدء تفتح موهبتها ، الا الاشيء الصغيرة . كانت تلقي ببطلتها لتختبر ما يختبره غيرها من الفتيات في البيئة الجديدة تلك ، ولكنها كانت تجح زمامها وتلجم خطاها لانها ، كما

والتطور الفني لسميرة يكشف عن هذه الحقيقة الساطعة ،
 موهبتها الاصيلة وطاقتها المتحفزة وفدراتها المتعددة ، لم تنسب فسي
 الطريق السوي الذي كانت نفذ السير اليه الا حين اكتشفت بظلمها
 والزمّت بقضيته : فضيحتها . هنالك فقط احست بذاتها وعرفت اين
 تضع قدمها وكيف توظف موهبتها . لقد اطل العصر الجديد ، عصر
 الادب المكافح ، في افصوصتين من افاصيص الظل الكبير ، استوحتهما
 من احزان اللاجئيين وعذابهم وحينئذهم الى العودة ، وهما « زغاريد »
 و « عام آخر » . وفي هذه المجموعة ايضا بدأت تفكر في مواجهة الموت
 مواجهة مأسوية ، خالصة من الميلودراما والوعظ والتعليق . وبدأت
 تأخذ نفسها اخذا شديدا : تحاسب وتساود وتراجع ، وتكتشف ان
 موهبتها وحدها لن تكفي لتحمل تبعات العهد الجديد ، عهد الكفاح ، فلا
 بد اذن من تعهدا بالصقل والتهديب . اقبلت على القراءة ، واتسع
 نطاق قراءاتها ليشمل الى جانب الادب الدراسات الانسانية والعلمية ،
 واخذت افاصيصها الجديدة تشبي بتلك الثقافة ، ولو ان عناصر منها
 بدت وكأنها استعصت على الهضم ، فران على السطح بقسع تجريدية
 لم يتمثلها الفن ، او لعل الاصح ان نقول ان هذا التجريد كان ضربا من
 الصراع بين العاطفة والحاجة الذاتية من جهة ، وبين حلم التميز
 والبروز ، مشروع المستقبل الذي استهلته به مجموعة « الظل الكبير »
 من جهة اخرى . فلذا طفي الضوء الباهر على اللهب الذي ينضج دون
 ان يعشي الابصار . وبدت بعض نواحي الضعف هنا وهناك ، في طور
 التصفية ذاك ، نتيجة لطفيان الاحساس ، او تعجل الاحساس المتدفق
 الى ان يقف ثمار التؤدة والنضج .

ثم جاءت القصص الاخرى حصاد سنوات سمان عجاف ، تاربت
 العراق . ثم انحرفت ثورتها ، وعاشت سميرة اعراس الثورة واتسرح
 الانحراف في عاصمة الثورة . وكانت الوحدة ، حلم الاجيال الذي بعث
 الامل وادنى القفاف ، فاذا بافاصيصها تبتهج حيناً ، وتشارك في عميق
 حس المأساة وفي ابراز صورها الدامية حيناً اخر ، كأنها كانت تستنحت
 الثورات على العمل - واذا « ببرك سليمان » و « خبز الفداء » جسمان
 المأساة في اعماق خطوطها واباس صورها . كانت عطشي تبحث عن

الماء ، وكانت تائهة حيرى تبحث عن وطنها بين تلك الاوطان التي تحررت
 او توحدت ، وتصرخ في وجه الثورة الا تقدمي ، وتستغيت ببطل الاحلام
 الفارس ان يردفها وراه ويعود بها الى الوطن الحبيب .

ثم كانت « الساعة والانسان » ، مآسي متلاحقة يتصارع فيها ما
 هو من نتاج الملاحظة وما هو من ثمرة التأمل العميق . فالفلسطيني ما
 يزال مشردا موصوما بنسبته اينما حسل ، مسبي النفس والجسد ،
 تراكمت الوان الخيبة عليه ، وتلاشت احلامه في العودة بعد الانفصال ،
 وعادت لغات بابل المنكرة تصيح من حوله ، كلام في كلام ، فليبدأ هسو
 وليستدب نفسه للعمل ، اذ لم يندبه احد ، لانه يعيهم ، وضريبة الحب
 هي الفداء . هل يتست سميرة بعد ذلك ، لقد الفت بنفسها بين شقي
 رحي - فلتنك كاتبة ولتنك مجاهدة ، لتكتب ، على ان تحقق مشروعها
 الكبير ، سيناء بلا حدود ، ولتنتدب نفسها ايضا للعمسل وللغداء .
 كلاهما شاق عسير ، ولكن خلاص الوطن فوق الراحة بل فوق الحياة .
 والكلام وحده لا يجدي وان كان من ذهب ، والفن ترف للفنان الشريد .
 ثم وقعت الواقعة ، واعجلتها النكسة ، وحطمت نفسها فعاتت تمضغ
 لسانها وتجزر ذكرياتها وفتات بالامها ، واسنوى الزرع على سوقه
 ونضجت الثمرة بل احترقت ، وسقطت سميرة شهيدة حب ولكن
 لبطلها ، وفداء ، ولكن لوطنها .

عليك سلام الله ايها الرفيقة المناضلة ، وليكن عزاًؤنا فيك ان سيرة
 كفاحك العظيمة ستظل نبراسا يضيء دياجي الخطوب ويهدي خطى
 الحائرين ، ويحرق انفاس المترددين المتخاذلين .

ولتردد المحافل والكتب ، حين تعرض الامم امجادها فسي سوق
 المفاخر : كانت اديبة مجاهدة ، ما صر القلم في يدها الا وعينها على
 فلسطين ، وما حملها الخيال يوما على اجنحته الا ليحوم بها في اجواء
 الوطن الحبيب ، وما انتدبت نفسها الى عمسل الا والوطنية حسيبها
 ورقيبها - شاركت في اللود عن الوطن مخلصه متفانية ، حين عز الحماة
 وكثر الرغبة التشدقون التفيهقون ، ولم يثبت فسي مستنقع الموت الا
 الصادق الامين .

صدر حديثا :

الرواية الرائعة التي كتبها الروائي العربي الاول الاستاذ نجيب محفوظ

والتي طال انتظار القراء العرب لها
 في كل مكان

أولاد حارتنا

- * أجراً وأخطر ما كتب مؤلف الثلاثية الشهيرة
- * الرواية التي أثارت ضجة كبيرة لدى نشرها في جريدة « الاهرام » منذ سنوات فلم يتح لها
 ان تصدر في كتاب ...
- * نشرها « دار الاداب » اليوم في اخراج انيق وطباعة فاخرة

الثلثون ٧٥٠ ف. ل.